مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

الشماليّون "الفايكنج" من سُكّان اسكندناوة

المصادر العربية أقدم المصادر وأوثقها عن تاريخهم

الدكتور أميرة توفيق الطيبي

جامعة ناصر

الشماليون: موطنهم وهجراتهم

تُعرف فترة التاريخ الأوروبي ما بين سنتيْ 800 و 1000 للميلاد بعصر الشماليين أو الفايكنج (Norsemen/Viking)، وهم سكان اسكندناوة (السويد والنرويج والدانمارك) الذين دأبوا آنذاك على الإغارة على سواحل أوروبا الشمالية والغربية والجزر القريبة منها. وعلى روسيا، بقصد النهب والسلب بادىء الأمر، ثم التجارة والاستقرار، بل انهم اكتشفوا بقاعاً جديدة واستوطنوها كجزيرتيْ أيسلاند وجرينلاند. أما تسميتهم بالشماليين فنسبةً إلى الجهة التي قدموا منها وهي شمال اوروبا، إذ لم يُعرفْ شيءٌ عنهم. واما التسمية فايكنج فنسبة إلى Vik بمعني الفيورد أو الخليج، إذ كانوا، يَكْمنون في مثل هذه الخلجان المنتشرة على ساحل النرويج للانقضاض على المراكب المارَّة بها[1]. وقد عرفهم المسلمون في

(1) = Bronsted, J. **The Viking,** Penguin 1971, P.36

المغرب والمشرق بعد إغارتهم أكثرَ من مرة على سواحل الأندلس، وعلى أراضي المسلمين في أذربيجان وجنوب بحر قزوين (خزر)، فعُرفوا عند الأندلسيين باسم المجوس والمجوس الأردمانيين، لأنهم كانوا وثنيين يحرقون موتاهم، فحَسِبهم أهلُ الأندلس كمجوس الفرس قبل الإسلام من أتباع زردشت. يقول ابنُ سعيد المغربي أنهم باقون على التمجُّس وعبادة النار، ولا يَرون أعظمَ منها منفعة[2]. أما الشماليون القادمون من بلاد السويد عبر روسيا، فقد عُرفوا في المصادر العربية المشرقية باسم الروس أو الروسية، وهي مشتقة من كلمة routsi الفنلندية التي أطلقها الفنلنديون على أهل السويد ومعناها «أصحاب المجاذيف».

وقد عزا المؤرخون خروجَ انشماليين من أوطانهم لازدياد السكان، وضيق الرقعة الزراعية، والحروب والفتن الداخلية، وهبوط شديد في درجة الحرارة في القرن التاسع الميلادي بعد ارتفاعها في القرن الثامن، فضلاً عن حب المغامرة والنهب والسلب، حتى إن كلمة viking باللغة الانكليزية القديمة كانت مرادفةً لمن يقوم بأعمال القرصنة[3].

أما الفرعُ الشرقيُّ من الشماليين القادمين من السويد إلى روسيا، فكان أفراده يزاولون منذ البداية التجارةَ عبر انهار روسيا مع تجار المسلمين، وبخاصة وادي نهر الڤولجا. وقد تمَّ العثورُ خلال القرنين الماضيين على كميات هائلة من الدراهم العربية في خبيئاتٍ في أكثر من الف موضعٍ معظمها في جزر بحر البلطيق، وشرق بلاد السويد، وقرب ضفاف الأنهار في روسيا. ففي جزيرة جوتلاند «قلب عالم الفايكنج» في بحر البلطيق ـ قرب ساحل السويد الشرقي ـ عُثر على اكثر من خمسين ألف درهم عربي[4]. ان الفايكنج كانوا يقدِّرون الفضةَ ويسعَوْن جاهدين

= Sawyer, P.H., **The Age of the Vikings,** London 1975, P. 56.

(2) ابن سعيد المعربي، علي: كتاب الجغرافيا، بيروت 1970، ص 202.

(3) Jones, K. **A History of the Vikings,** Oxford U.P.1973, P. 196

Proctor, G.L., **The Vikings,** Longman 1984, PP. 1.4.

(4) Magnusson, M., **Vikings,** London 1980, P. 92.

لاقتنائها، وكانوا يخبئونها، أو يتزينون بها، ويستعملونها في مبادلاتهم، ويدفنونها في قبورهم. وكان تجارُ المسلمين يشترون منهم ـ بالدراهم الفراءَ والجلودَ والعنبر والرقيقَ الصقالبةَ الذين كان الفايكنج يحصلون عليهم عن طريق الإغارة في شرق أوروبا.

أما الشماليون القادمون من النرويج والدانمارك، فقد ركّزوا غاراتِهم على الجزر البريطانية، وشمال فرنسا وغربيها، وكانوا يقومون بادىء الأمر بغارات سريعة خاطفة للنهب والسلب، ثم يعودون إلى قواعدهم عند مصبات الأنهار. وكانت الأديرةُ والكنائسُ الهدفَ الأولَ لغاراتهم، لِمَا كانت تحويه من كنوز وذخائر، وأحدثت غاراتُهم الرعبَ والفزعَ في قلوب الناس، حتى إنهم في ابتهالاتهم أضافوا عبارةً جديدةً: «من بلاءِ الشماليين، نجِّنا يا ربِّ»[4].

وقد اكتشف الشماليون القادمون من النرويج جزيرة ايسلاند واستوطنوها منذ عام 874 م، وجزيرة جرينلاند منذ عام 985 م، ووصل أحدهم ـ ليف إريكسون ـ إلى الطرف الشمالي من القارة الأمريكية في حدود عام 1000 م، فكان اكتشافهم لأمريكا قبل كريستوفر كولمبس بخمسة قرون.

كان الشماليون وثنِّيين بادىء الأمر يعبدون عدة آلهة، في مقدمتها Frey إله الخصب (بقي اسمُه في اسم يوم الجمعة Friday) و Thor إله القوة (بقي اسمُه في اسم يوم الخميس Thursday).

وقد عرف الشماليون الكتابةَ والحروف، وكانوا يحفرون كتاباتهم في ألواحٍ من الخشب أو نُصب من الحجر يسجِّلون بها اسماءهم ووقائعهم، وتُعرف حروفهم بالحروف الرونية runes. وقد أشار إلى كتابتهم هذه ابنُ النديم اذ قال: «قال لي من أثق بحكايته إن بعضَ ملوك جبل القبق أرسله إلى ملك الروسية [الشماليين من السويد] وزعم ان لهم كتابةً على الخشب حَفْراً، وأخرج إليَّ قطعةَ خشب بياض عليها نقوش، لا أدري أهي كلماتٌ أم حروفٌ مفردات»[5].

(5) ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، بيروت 1978، ص 79-80.

وفي المصادر العربية اشاراتٌ عديدةٌ إلى الشماليين تُشيد بجرأتهم وشدة بأسهم في القتال. فابن القوطية يقول إن أهل اشبيلية عجزوا عن «مقارعة القوم لشدة شوكتهم»[6]. ويتحدث ابنُ حيان القرطبي عن «هذا العدوِّ المرهوب جانبه»[7]. أما ابنُ سعيد المغربي فيقول إن المجوس «كانت لهم شدة وبأس وَجَلَدٌ على ركوب البحر. وكانوا إذا خرجوا تخلَّى أمامهم أهلُ السواحل يفرُّون منها مخافةً منهم... وكانوا يغلبون كلَّ من لَقُوه في البحر ويَسْبونهم ويأسرونهم»[8].

مصادر تاريخهم

لدينا مصادرُ كتابيةٌ من البلاد التي تعرَّضتْ لغارات الشماليين، وهي بأقلام الرهبان أو الكتَبة في بلاطات الملوك في انكلترا وفرنسا وإرلندة، إلا أن هؤلاء الرهبانَ والكتبةَ متحاملون أشدَّ التحامل على الشماليين لقيامهم بنهب وحرق أديرتهم وكنائسهم، ولذلك فإنه لا يُعتمد على أقوالهم.

وهنالك قصائدُ شعراء الشماليين وملاحمُهم Sagns، وهي تمجِّد أعمالَهُم، وكان لها منزلة كبيرة بينهم، وقد بقيت لأنها ـ كالمعلَّقات عند العرب قبل الإسلام ـ كانت تُحفظ غَيْباً وتُنشد شفوياً في المحافل، ثم دُوِّنت فيما بعد[9].

وتوفَّرتْ للباحثين معلوماتٌ كثيرةٌ عن الشماليين من القوانين المدوَّنة القديمة في النرويج والسويد والدانمارك، وقد كُتبتْ هذه القوانينُ بُعيْدَ فترة الشماليين[10].

وقد تم التوصلُ في السنوات الأخيرة إلى معلومات كثيرة عن الشماليين

---

(6) ابن القوطية، أبو بكر: تاريخ افتتاح الأندلس، بيروت 1957، ص 85.

(7) ابن حيان، أبو مروان حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، بيروت 1965، 7 ص 24.

(8) ابن سعيد المغربي انظر (أخبار أمم المجوس)، نصوص عربية جمعَها الكسندر سيبل، اوسلو 1928، ص 11.

(9) Proctor, P. 100

(10) نفسه، ص 102.

بفضل الحفريات والاكتشافات الأثرية، كتلك الجارية منذ سنوات في دبلن بارلندة، ومدينة يورك بشمال انكلترا، وهي تدل على انهم كانوا فنيِّين وحِرْفيِّين مهَرة. كما ان وفرةَ الدراهم العربية التي عُثر عليها في بلدان اسكندناوه وروسيا وبعض الجزر القريبة من سواحل اسكتلندا تدل على انهم زاولوا التجارةَ على نطاق واسع. لذلك، فإن الباحثين أخذوا يردِّدون في السنوات الأخيرة عبارةَ «Traders not raiders» (تجار لا مُغيرين نهَّابين) في وصف الشماليين. كما تم العثورُ على بعض سفن الشماليين، وأشهرها سفينة جوكستاد Gokstad التي عُثر عليها مطمورةً قرب أوسلو، وهي تبيِّن تطورَ بناء المراكب عندهم.

إلا أن المصادرَ العربيةَ أقدمُ المصادر الكتابية وأوفاها وأوثقُها عن تاريخ الشماليين المبكِّر، ولذلك فقد حرص الباحثون من بلدان اسكندناوة على ترجمتها إلى لغاتهم باعتبارها أقدمَ المصادر المكتوبة عن تاريخهم في بداية القرون الوسطى. فالمستشرقُ النرويجيُّ الكسندر سيبل Seippel عمل منذ عام 1896 على جمع كافة النصوص العربية المتعلقة بالشماليين ـ وترجمتها إلى اللاتينية ـ في كتابٍ بعنوان (أخبار أمم المجوس) طُبع في مدينة اوسلو عام 1928.

ان اقدم مصدريْن عربيَّيْن عن الشماليين الروايةُ الخاصةُ بسفارة الأندلسي يحيى الغزال إلى بلاط ملك الشماليين النرويج بارلندة، ورحلةُ أحمد بن فضلان إلى بلاد البلغار شرقي موسكو، وما أورده فيها عن التجار الروسية من بلاد السويد.

سفارة يحيى الغزال (845م)

منذ اواخر القرن الثامن الميلادي دأب الفايكنج من اسكندناوه على شنِّ الغارات الخاطفة بحراً على الجزر البريطانية وارلندة وشمال فرنسا وغربيها، كما أغارت جماعةٌ منهم عام 229 هـ/ 4-845 م على غرب الأندلس ـ حيث عُرفوا بالمجوس وبالمجوس الأُردمانيين كما تقدَّم ـ على عهد أمير قرطبة الأموي عبد الرحمن الثاني (الأوسط)، وتمكَّن المغيرون من احتلال إشبيلية ذاتها (14 محرم

240 هـ/ 1 اكتوبر 844م) لمدة ستة أسابيع، والغَيْث فيها وفي أحوازها، إلى أن أوقعتْ بهم قواتُ الأمير هزيمةً في معركة طَلْياطة Talyata ـ حيث يقع مطارُ اشبيلية اليوم ـ وأجبرتهم على الجلاء عن الأندلس والعودة من حيث أتَوْا. يقول ابنُ عِذارى: «كانت الوقعةُ عليهم بقرية طلْياطة... قُتل فيها منهم خلق كثير، وأُحرق من مراكبهم ثلاثون مركباً، وعُلِّق من المجوس باشبيلية عدد كثير، ورُفع منهم في جذوع النخل التي كانت بها... وكتب الأميرُ عبد الرحمن إلى من بطنجة من صنهاجة يُعلمهم بما كان من صنع الله في المجوس... وبعَثَ إليهم برأس أميرهم، وبمائتي رأسٍ من أنجادهم»[11].

وعلى أثر هزيمة المجوس في طَلْياطة، وفَدَ على قرطبة رسولُ ملك المجوس يطلب من الأمير السلمَ والمصالحة، وردَّ الأميرُ عبد الرحمن بإيفاد سفارة إلى بلاط ملك المجوس على رأسها الشاعرُ الأندلسيُّ المعروف يحيى بن الحَكم البكري الجيَّاني ـ وقد شارف الخمسين، وكان يُلقب، لوسامته، بالغزال ـ وصُحبتُه يحيى ابن حبيب.

إن أوفى ما وصلَنا في المصادر العربية عن سفارة يحيى الغزال إلى بلاط المجوس هو ما أورده ابنُ دِحْية (ت القاهرة سنة 633 هـ/ 1235 م) في كتابه (المُطرب من أشعار أهل المغرب). يذكر ابنُ دحية أنه «لما وفَد على السلطان عبد الرحمن رسلُ ملك المجوس تطلب الصلحَ بعد خروجهم من إشبيلية، رأى أن يراجعَهم بقبول ذلك، فأمر الغزالَ ان يمشي في رسالة مع رسُل ملكهم لِمَا كان عليه الغزالُ من حدَّة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب والنجدة والإقدام، والدخول والخروج من كل باب»[12]. ويضيف ابنُ دحية بان الغزال وصل إلى

---

(11) ابن عذارى، أبو العباس: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت 1980، الجزء الثاني، ص 88.

(12) ابن دحية، عمر: المطرب من اشعار أهل المغرب، القاهرة 1954، ص 138-139.

مستقرٌ الملك» في جزيرة عظيمة في البحر المحيط [الأطلسي] فيها مياهٌ مطَّردة وجنَّات، وفيها من المجوس ما لا يُحصى عددُهم»[13].

ويمضي ابنُ دحية في روايته فيقول: «فأمر لهم الملكُ بمنزلٍ حسنٍ من منازلهم... واحتفل المجوسُ لرؤيتهم. فرأوا العجبَ العجيبَ من أشكالهم وأزيائهم... واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته، فاشترط الغزالُ عليه إلا يسجدَ له ولا يخرجهما عن شيء من سُنَّتهما، فأجابهما إلى ذلك»[14].

ولما سمعتْ امرأةُ ملك المجوس ـ واسمها نود في رواية ابن دحية ـ بذكر الغزال، وجَّهتْ إليه لتراه. وكان يحدِّثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم وبمن يجاورهم من الأمم. ولما حُذِّر الغزال من تردده على الملكة أغبَّ زيارتَها، فاستدعته مستسفرةً، فقال لها ما حُذِّر منه. «فضحكتْ، وقالت له: ليس في ديننا نحن هذا، ولا عندنا غَيْرةٌ، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن، تقيم المرأةُ معه ما أحبَّت، وتفارقه إذا كرهتْ»[15].

«وللغزال معهم مجالس مذكورة، ومقاومُ مشهورة، في بعضها جادل علماءَهم فبكَّتهم، وفي بعضها ناضل شجعانَهم فأثبتهم»[16].

إن سفارةَ الغزال أولُ سفارة إسلامية ـ فيما نعلم ـ توفد إلى أهل الشمال، وقد تباينتْ آراءُ الباحثين في تحديد البلد الذي قصده السفيرُ الأندلسي: أهو مَقَرُّ الفايكنج في بلاد الدانمارك، وملكهم هوريك Horik، أم هو مقرُّ الفايكنج

---

(13) نفسه، ص 140. وينقل القزويني عن أحمد بن عمر بن أنس العُذري ـ من أعلام الجغرافيين الأندلسيين في القرن الخامس الهجري ـ قوله عن جزيرة إرلندة أنه «ليس للمجوس قاعدة إلا هذه الجزيرة» ـ القزويني، زكرياء: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت 1979، ص 577.

(14) ابن دحية، ص 141

(15) نفسه، ص 143.

(16) نفسه، ص 142.

النرويجيين الذين غَزَوْا جزيرة ارلندة واستقروا فيها، وملكهم تُرجيس[17]. بل ان المستشرقَ الفرنسيَّ ليڤي - بروفنسال يرى ان الزيارةَ كانت عام 840م إلى القسطنطينية عاصمةِ الروم البيزنطيين رداً على سفارة قدمتْ إلى قرطبة موفدةً من قِبَل الامبراطور البيزنطي ثيوفيل عام 839م[18]. أجلْ، ان الغزالَ كان قد توجَّه إلى القسطنطينية عام 840م رسولاً للأمير عبد الرحمن الثاني رداً على سفارة ثيوفيل، إلا ان تلك السفارةَ كانت سفارتَه الأولى، أما سفارتُه الثانية عام 845م فكانت إلى بلاط ملك المجوس في جزيرة ارلندة بعد شنِّهم الغارات على سواحل غرب الأندلس عام 844 م من قواعدهم في جزيرة ارلندة عن طريق خليج بِسْكاي.

كانت جزيرةُ ارلندة قد تعرَّضتْ منذ مطلع القرن التاسع الميلادي لغارات عنيفة مدمِّرة من جانب الفايكنج القادمين من بلاد النرويج، وفي حدود عام 839م كان زعيمهم تُرجيس Turgeis قد احتلَّ النصفَ الشماليَّ من الجزيرة، واتخذ لنفسه قاعدةً في لوخ ري Loch ri في وسط الجزيرة على أعالي نهر شانون، بينما استقرَّتْ زوجته أوتا/أوتار Ota/Ottar إلى الجنوب قليلاً في بلدة كلونماكنويس Clonmacnois، حيث كانت توجد كنيسةٌ معظَّمةٌ لدى الإرلنديين، ومن على مذبح الكنيسة كانت الملكة أُوتا تعطي اجاباتِها الخاصةَ بالتكهُّن بأحداث المستقبل[19]. ويبدو ان الغزال كان يتردَّد على الملكة أُوتا في هذا المكان الذي كانت تقيم فيه.

لا تذكر المصادرُ الإسكندناويةُ والإرلنديةُ من منتصف القرن التاسع الميلادي شيئاً عن وصول سفارة من قرطبة إلى بلاط ملك الفايكنج. والمصدرُ الرئيسيُّ عن تُرجيس - وفيه إشارة واحدة إلى زوجته أُوتا/ أُوتار - هو كتاب (حرب جَيْدهيل

---

(17) Jones, P. 214

(18) Lévi -Proverçal, E., **Histoire De L'Espagne Musulmnne**, Paris-Leiden 1950, Vol.I, PP. 252-254.

(19) Allen, W.E.D., **The Poet and the Space-Wife** London 1960, PP. 32,46

Gaedhill ضد الأجانب)، الذي ألّفه صاحبُه بعد قرن ونصف القرن من فترة حكم تُرجيس[20].

إن روايةَ الغزال عن البلاد التي وصل إليها روايةٌ مقتضبةٌ، ولكنها مليئةٌ بالمعلومات. فالتفاصيل التي يوردها ابنُ دحية تعكس نمطَ حياة امرأة الفايكنج كما نجدها في ملاحمهم Sagas، وكما أكدَّتهْا الحفريات. إن مشاركةَ الغزال في المناظرات والمبارزات أيضاً مما تتميّز به حياتُهم الاجتماعية. كان رؤساؤهم مولعين بالمناظرات ورواية الحكايات والأحاجي. ولعلَّ تُرجيس شجَّع على عقد مثل هذه المناظرات بين عالمٍ مسلمٍ بارزٍ كالغزال وبين الشعراء ورجال الدين الارلنديين[21].

ويتضح من الإشارة المقتضبة في المصادر الإرلندية إلى الملكة أُوتا بأنَّ الملكةَ كانت تمارس الكهانةَ والعَرافة. ان الزوجاتِ العرَّافاتِ انتشرن بين الإسكندناويين على مختلف الأصعدة الاجتماعية، وكثيرٌ منهنَّ كنَّ من أصلٍ فنلندي، واشتهرن بممارسة أعمال السحر والكهانة، وكان الملوك والرؤساء يرغبون في الزواج من أمثالهنَّ[22].

إن حديثَ الملكة أُوتا مع السفير يحيى الغزال عن وضع المرأة في مجتمع الفايكنج وحريتها في اختيار زوجها، وفي بقائها معه أو تركه ان شاءت يتفق مع الوضع الذي كان يسود في مجتمع الشماليين آنذاك، وبخاصة الطبقة الأرستقراطية من نسائهم، ومع نمط حياتهن، وتؤكده المصادرُ الأخرى[23]. ولعلَّ تردّدَ الغزال

---

(20) نفسه، ص 17.

(21) نفسه، ص 45.

(22) نفسه، ص 47.

(23) نفسه، ص 48-46.

ومثل ذلك ذكره إبراهيم بن يعقوب الطُرطوشي الذي أوفده خليفةُ قرطبة الحكم المستنصر سنة 965م إلى الامبراطور الالماني أتوا الأول، فقد حكى في معرض حديثه عن إمارة شلشويق بشمال المانيا=

على الملكة، وأحاديثَه الطريفةَ معها ـ كما يرويها ابنُ دحية ـ حدث اثناء غياب زوجها تُرجيس في حملة قادها عَبْر نهر السين ضد باريس (مارس 845م).

استغرقت سفارةُ الغزال عشرين شهراً، وكانت بدايتُها من ميناء شِلْب بغرب الأندلس في أواخر شهر ديسمبر 844 م، أو اوائل شهر يناير 845م.

إن السفارةَ التي يوفدها اميرُ قرطبة الأموي عبدُ الرحمن الثاني إلى ملك الفايكنج كانت تستهدف أغراضاً سياسيةً واقتصادية. فلعلَّ الأمير أراد كسبَ حليفٍ له في حروبه مع ملك فرنسا آنذاك شارل الأصلع. ففي العقد الأول من القرن التاسع الميلادي استولى الفرنجةُ على برشلونة من أيدي المسلمين، وقامت حروب بين الجانبين للسيطرة على قطلونية. ان ضعفَ مملكة الفرنجة بعد عام 841م أتاح الفرصةَ أمام المسلمين لغزو جنوب فرنسا حتى مشارف أربونة سنة 843م، أي قبل سنة من وقوع غارة المجوس على اشبيلية. ولعلَّ الأميرَ عبد الرحمن أراد التحالفَ مع ملك المجوس ضد الفرنجة. ولكن الأكثرَ احتمالاً هو أن الأمير كانت تحدوه إلى إيفاد السفارة دوافع تجارية، وهي الحصولُ عن طريق الفايكنج على الفِراء والرقيق[24]. كما أن الإشارةَ في رواية ابن دحية إلى وجود مترجمين في بلاط ملك الفايكنج تولَّوْا الترجمةَ ما بين الملك والسفير دليلٌ على وجود علاقات تجارية بين البلدين.

رحلة ابن فضلان (921-922م)

كان ملكُ البلغار ـ وكانوا يقطنون شرقيَّ موسكو في الحوض الأعلى لنهر الفولجا ـ قد اعتنق وقومُه الدينَ الإسلاميَّ في مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر

= «ان الطلاقَ عندهم إلى النساء، والمرأة تطلِّق نفسها متى شاءت» ـ القزويني: آثار البلاد، ص 601.

(24) Jones, P. 206. Allen. P. 12

Logan, F.D., **The Vikings in History**, London 1983, P. 125.

الميلادي في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله[25]، فأرسل إلى بغداد رسولاً يسأل الخليفةَ العباسيَّ أن يُنفذ من يعلِّمهم الصلواتِ والشرائع، وإن يُعينَه على اعدائه من ملوك الخَزر ـ في الحوض الأدنى لنهر الفولجا ـ وهم من اليهود الذين كانوا يعتدون على قومه ويفرضون عليهم الضرائب[26]. فأرسل الخليفةُ العباسيُّ وفداً ضمَّ أحمدَ بن فضلان توجَّه من بغداد في 11 صفر 309 هـ/ 21 يونيو 921م، ووصل بعد نحو عامٍ إلى بلاط ملك البلغار، ماراً ببخارى، وخوارزم، وبلاد الأتراك الغُز والبشناق. فأتيحت بذلك لابن فضلان فرصةٌ فريدةٌ لكي يشاهدَ بنفسه عن كَثب تجارَ الفايكنج من السويد ـ ويسمِّيهم الروسية ـ الوافدين إلى بلاد البلغار لتبادل السلع مع تجار المسلمين. ولم يعلم الأوروبيون بأخبار رحلة ابن فضلان حتى عام 1823 حينما نُشر ما اقتبسه منها ياقوتُ الحموي في (معجم البلدان) تحت مادة «بلغار».

إن رسالةَ ابن فضلان في وصف رحلته تُعدُّ مصدراً أساسياً قيِّماً للباحثين في تاريخ الفرع الشرقي من الفايكنج، وموطنهم بلاد السويد، إذ هي روايةُ شاهد عِيانٍ للقوم الذين لم يصلْنا سوى النزر اليسير من أخبارهم عن طريق حكاياتهم وأساطيرهم التي ضمَّنوها ملاحمَهم الشعريةَ المعروفة باسم Sngas.

وفي الرسالة يتحدَّث ابنُ فضلان عن هيئات هؤلاء الفايكنج وأزيائهم، وأسلحتهم، وديانتهم، وأعرافهم التجارية فيقول: «ورأيتُ الروسيةَ [الفايكنج من السويد] وقد وافَوْا في تجاراتهم ونزلوا على نهر إتل [الفولجا]، فلم أرَ أتمَّ أبداناً منهم كأنهم النخل، شُقْرٌ حُمْر. يلبس الرجلُ منهم كساءً يشتمل به على أحد شِقَّيه، ويُخرج إحدى يديْه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه... وهم مستهترون بالنبيذ، يشربون ليلاً نهاراً»[27]. ويتحدث ابنُ فضلان

(25) المسعودي، علي: مروج الذهب، الجزء الأول، القاهرة 1964، ص 181. ابن حوقل، محمد: صورة الأرض، بيروت (دون تاريخ)، ص 335.

(26) كان تَهَوُّدِ ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد، وقد «انضاف إليه خلقٌ من اليهود وردوا إليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم» ـ مروج الذهب، 1/ ص 178 ومن هؤلاء الخزر المتهوِّدين ينحدر كافةُ يهود اوروبا المعروفين بالاشكنازي، وهم لا يمتُّون بأية صلةٍ للشعوب الساميَّة.

(27) ابن فضلان، أحمد: رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدَّهان، دمشق 1977، ص 175، 181.

عن نسائهم فيقول: «وفي أعناقهنَّ أطواقٌ من ذهب وفضة، فإن الرجلَ إذا ملك عشرة آلاف درهم، صاغ لامرأته طوقاً، وإن ملكَ عشرين ألفاً، صاغ لها طوقين، وكذلك كل عشرة آلاف يزدادها، يزداد طوقاً لامرأته. فربما كان في عنق الواحدة منهنَّ الأطواقُ الكثيرة»[28].

وكان هؤلاء الفايكنج عند قدومهم من بلدهم يُرسون سفنَهم بإتل [الفولجا] ويبنون على شاطئه بيوتاً كباراً من الخشب.

كان الفايكنج وثنِّيين يعبدون الأصنامَ ويتوسَّلون إليها لقضاء حاجاتهم، وعن ذلك يحدِّثنا ابنُ فضلان فيقول: «وساعةَ توافي سفنُهم إلى هذا المرسي [بلدة بلغار على نهر الفولجا] يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ، حتى يوافيَ خشبةً طويلةً منصوبة، لها وجهٌ يشبه وجهَ الإنسان، وحولها صور صغار. فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجدلها ثم يقول لها: يا ربِّ، قد جئتُ من بلد بعيد، ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً، ومن السَمُّور كذا وكذا جلداً... ثم يقول: وجئتُك بهذه الهدية. ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة ويقول: أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانيرُ ودراهمُ كثيرة، فيشتري مني كلَّ ما أريد، ولا يخالفني فيما أقول، ثم ينصرف. فإن تعسَّر عليه بيعُه، وطالت أيامه، عاد بهدية ثانية وثالثة»[29].

ويلاحظ ابنُ فضلان أن هؤلاء الفايكنج هم أقذر خلق الله، ولا يغسلون أيديَهم من الطعام، ويضيف بأنهم يغسلون وجوههم ورؤوسهم في كل يوم على النحو التالي: «توافي جاريةٌ كلَّ يوم بالغداة، ومعها قصعةٌ كبيرةٌ فيها ماء، فتدفعها إلى مولاها، فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه، فيغلسه ويسرِّحه بالمشط في القصعة، ثم يتمخط ويبصق فيها... فإذا فرغ مما يحتاج إليه، حملت الجاريةُ القصعةَ إلى الذي إلى جانبه، ففعل مثلَ فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يتمخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها»[30].

---

(28) نفسه، ص 176.

(29) نفسه، ص 178-179.

(30) نفسه، ص 178.

ويقول ابن فضلان إن الفايكنج يحرقون موتاهم، وقد شهد بنفسه مراسمَ حرق أحد كبارهم بعد موته مع إحدى جواريه في سفينة بعد ان وضعوا سلاحَه والطعامَ واللحوم. وقامت امرأةٌ عجوز ـ يسمِّيها ابنُ فضلان مَلَكَ الموت ـ بتقديم الجارية قرباناً لمولاها، ثم أُشعل المركب ـ والجاريةُ بجنب مولاها ـ حتى استحال رماداً. يقول ابنُ فضلان: «وكان إلى جانبي رجلٌ من الروسية [الفايكنج] فسمعته يكلِّم الترجمانَ الذي معي. فسألتهُ عما قال له، فقال: إنه يقول: أنتم يا معاشرَ العرب حَمْقى. فقلتُ له: لِمَ ذلك؟ قال: انكم تعمَدون إلى أحبِّ الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب، وتأكله الترابُ والهوامُ والدود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة، فيدخل الجنةَ من وقته وساعته»[31].

إن روايةَ ابن فضلان عن أخبارِ رحلته إلى بلاد البلغار ذاتُ أهمية تاريخية وجغرافية وإثنوغرافية عظيمة، وهي تدلُّ على أنه كان لابن فضلان قدراتٌ عجيبةٌ غيرُ عادية على الملاحظة وحب الاستفسار، فأفادنا بكميةٍ وفيرةٍ من المعلومات في غاية الأهمية عن الفايكنج من أصل سويدي مما شاهده بنفسه، أو تناهى إلى سمعه أثناء رحلته[32].

---

(31) نفسه، ص 186.

وبعد ابن فضلان، ذكر المسعودي ان الروسَ إذا مات الرجلُ منهم «أحرقت معه امرأته، وهي في الحياة، وإن ماتت المرأة لم يُحرق الرجل» ـ مروج الذهب، 1/ ص 179. ويقول ابنُ حوقل ان الروسَ «قومٌ يحرقون أنفسهم إذا ماتوا، وتُحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبةٍ من أنفسهنَّ، كما يفعل الهند» ـ صورة الأرض، ص 316.

(32) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية، بالانكليزية)، لندن ـ ليدن 1971، المجلد الثالث، ص 957.